مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 6 (2009) : 273 - 287
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الإعجاز التأثيري النفسي للقرآن الكريم

عباس بن شيخ
المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

يحتل القرآن الكريم بأدبيته الرفيعة الصدارة في الأدب العربي، ويعتلي ذروة النثر الفني، جمع من الثراء اللغوي والتنوع البلاغي والأساليب التعبيرية المتجددة الرائعة، ما جعله كتاب العربية الأول ومعجزتها البيانية الخالدة.

وقد وجه الدارسون أقلامهم إلى هذا المعطى الجمالي يفتشون في جمال أسلوبه وطرق عرضه واستقامة معانيه، فركّز القدامى منهم جهودهم حول المعاني فخلّفوا لنا ثروة هائلة من التفاسير، اتخذت بعضها طريقة التحليل للتمكن من الجوانب الفنية في القرآن كما هو الشأن عند الزمخشري في الكشاف مثلا، واتخذ المحدثين من تلمس مواطن الجمال والأدوات الفنية في القرآن الكريم وسيلة لإبراز إعجازه، مستفيدين في ذلك من المعاني الجمة التي خلفها القدامى، فكان منهم أن جمعوا إلى جانب المعاني الخصائص الفنية الأخرى للنص القرآني.

ومن الأبواب الإعجازية أو الجوانب الفنية التي حاول طرقَها المحدثون إيقاعية النص القرآني والغاية من ورائها، فكانت لهم معها وقفات، جلاها البعض في كتابات خا ة وأفردها البعض مباحث من كتاباتهم، فكتبوا عن الإعجاز الفني في القرآن والصوت اللغوي في القرآن والإعجاز الموسيقي في القرآن، ولتناثر مباحث هذا الموضوع في كتابات القدامى جاءت أبحاث المحدثين محاولة للم تلك الأشتات المتناثرة وجمعها بغية إخراجها في لبوس يفصح عن جهدهم وجهد من سبقهم.

فإن سلمنا ان القرآن الكريم جاء بالقيم والتعاليم النبيلة ليؤثر بها على ا نسان الجاهلي آنذاك وعبر سائر العصور، فهل يمكن أن نسلم أيضا أن تلك الإيقاعية كانت المطية

لهذا التأثير باعتبار أن "النفس البدوية طروب في جوهرها، وجميع مطامحها وانفعا تها إنما تتجلى في تعبير موسيقي موزون"(1).

– الإيقاع في معناه العام:

لقد مهّدت الطبيعة للعرب قيام الإيقاع في شعرهم ونثرهم بممهدات فطرية كان لها ا نعكاس الواضح على لغتهم، فطبيعة الصحراء برتابتها أوحت إلى ساكنيها وهدتهم إلى توقيع لغتهم مستفيدين من الظواهر الكونية المحيطة بهم، فتوالي الليل والنهار والشمس والقمر ومدار الأيام والشهور والسنوات؛ كلها نواميس طبيعية توحي بإيقاع ا ياة، وقبل ذلك دقات القلب وحركة العينين وحركة الأقدام أثناء السير "فلجسم الإنسان حركات إيقاعية سريعة كحركات التنفس، وحركات إيقاعية بطيئة كتعاقب الجوع والشبع والنوم واليقظة، وفي الطبيعة إيقاع ثنائي يتعاقب فيه الليل والنهار، وإيقاع رباعي تتعاقب فيه فصول السنة"(2).

وعلى هذا فإن الإيقاع يتجلى في كل مظاهر ا ياة والكون، وما دام "الإنسان يشعر بالإيقاع في حركة الكون حوله، فإنه يراه أيضا في الفنون التعبيرية التي إبتدعها، مثل الشعر الذي يتمثل الإيقاع فيه في ا ركات اللفظية، والموسيقى التي يتمثل الإيقاع فيها في ا ركات الصوتية، والرقص الذي يتمثل الإيقاع فيه في ا ركات البدنية "(3) وفي غمرة هذا ا نتشار للإيقاع في أجزاء الكون يعسر أن نجد له تعريفا يحيط بكنهه، ذلك أنه "من عهد اليونان الذين كانوا أول من اجتهدوا في تحديده يزال مصطلح الإيقاع محل نزاع بين الباحثين" (4).

ولعله من الجدير بنا قبل الولوج في تلك التعاريف والمفاهيم أن نعرج على الد ت المعجمية لمصطلح الإيقاع، لعل أن نقف عند نقطة تكون رأس الخيط ستكناه جوهر الإيقاع ومفهومه.

ففي معاجمنا العربية نجد الإيقاع يعرف لغوياً على أنّه مستمد من "إيقاع اللحن والغناء، وهو أن يوقع الأ ان ويبينها "(5)، وهو أيضا مستمد من "وقع المطر وهو شدة ضربه الأرض إذا وبل"(6).

وفي معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب يعرف على أنه "الجريان والتدفق، والمقصود به عامة هو التواتر المتتابع بين حالتي الصوت والصمت، أو النور والظلام، أو ا ركة والسكون، أو القوة والضعف، أو الضغط واللين، أو القصر

والطول، أو الإسراع والإبطاء، أو التوتر وا سترخاء"[7]، فالإيقاع إذن يمثل العلاقة بين الجزء والجزء الآخر، أو بين الجزء والأجزاء الأخرى، ولعلنا بهذا التعريف إتضح لنا جوهر الإيقاع في أنه التتابع أو التعاقب بين الأجزاء، وهذا في عامة الأشياء سواء في الموسيقى أو الأدب أو الرقص أو غيرها.

وهو بالإضافة إلى هذا "يمثل في جملة من المظاهر، بحيث كان كل شيء يشكل في نفسه، ومع غيره أيضاً إيقاعاً: إذا تكرر على سبيل ا نسجام وا ئتلاف؛ بل إذا تكرر على سبيل التناقض وا ختلاف كتعاقب الفصول مثلاً"[8].

ويعرفه عمر السلامي على أنّه: "إحداث وت أو جرس خافت أو رفيع"[9]، وهو كذلك عنده "الترديد المتوا ل لنظام معين"[10]؛ وتا كان أو حركة أو مادة.

أمّا في الموسيقى، فيتمثل في "فصل زمان الصوت بفوا ل متناسبة"[11] يحسها السامع بشكل دوري، فيتشكل عنده التوقع للمقطع الآتي، فتحدث عنده بذلك اللذة الفنية، لذلك ارتبط الإيقاع ارتباطا وثيقا بالموسيقى، حتى أنه "ربما كان من السهل دراسة الإيقاع في الموسيقى وكشف هذه القوانين بسهولة فيها، لأنها فن زماني تتضح فيه الصورة الأولى و تختلط بشيء"[12]، وهذا ما يجعل دراسة الإيقاع في الأدب بله القرآن تحتاج إلى شيء من التركيز والتمعن؛ لأنه يمكن عزل الإيقاع ودراسته بعيداً عن موطنه الأ لمي، ومن خلال التعاريف التي عرجنا عليها يتضح لنا جليا أن الإيقاع " فة مشتركة بين الفنون جميعا، تبدو واضحة في الموسيقى والشعر والنثر الفني والرقص، كما تبدو واضحة في كل الفنون المرئية"[13] بدرجات تختلف حسب براعة المبدع.

- الإيقاع في الأدب:

إننا إن حاولنا الوقوف بعض الشيء للبحث عن جذور الإيقاع، ومحاولة معرفة أ وله في موروثنا النقدي الأدبي العربي، فإنه من غير شك نجد كما هائلا من الدراسات في ذلك، تحت مسمى الإيقاع، بل تحت مسميات أخرى، قاربت أو مست المصطلح من قريب أو بعيد. ومصطلح الإيقاع نجده يختلط بغيره من العنا ر الفنية المكونة للعمل الأدبي، على نحو يجعل الوشيجة الرابطة بين هذه العنا ر مجتمعة تعطي للنص جمالية وذوقا خا ا به، وهذا ما نلفيه في نصوص القرآن، فإلى جانب الإيقاع نجد الصور والظلال وألوان شتى من

البديع والأدوات الفنية الأدبية.

إن الإيقاع بالمفهوم النقدي ا لديث يعدو كونه مصطلحا تعارف عليه أدباء ونقاد العصر ا لديث، أما القدامى فكان جلي لأنفسهم خفي في كتاباتهم، ذلك أنهم تذوقوه وأحسوا به، غير أن كل عبر عنه باللفظ الذي راه مناسبا ومعبراً عن إحساسه.

والإيقاع في الأدب يعني "الإفادة من جرس الألفاظ وتناغم العبارات واتساق البناء لإحداث إحساس مستحب عند القارئ والمستمع"(14) ، لأن الأدب يعني مجرد ر ف ا روف لتشكيل الكلمات، وإنما هو الإفادة من الخصائص الصوتية للحروف، واستكناه طاقات اللغة التعبيرية لإحداث الأثر المبتغى في المتلقي، وتو يل المعنى إليه بكل وجوهه.

والمتتبع للنصوص الأدبية في تراثنا ا لديث والقديم، يجد كما هائلا من التعاريف أو الأو اف للإيقاع، تتقارب وتبتعد وتتفق وتختلف، خصو اً تلك التي تعاملت مع النص القرآني. أما في التراث النقدي القديم فإننا نجد المصطلح بعينه – أي الإيقاع– غير أننا نجد ما يشي بحسهم الإيقاعي بتعابير يظهر فيها هذا الإحساس جليا، فهم حين يتكلمون عن "ا نسجام وا تفاق بين الأ وات في كلمات متتالية"(15) إنما يومئون بذلك إلى الإيقاع، من حيث يدرون أو من حيث يدرون.

ولأنهم لم يتواطؤا على مصطلح الإيقاع فإنهم عبروا عنه بألفاظ هي من أو افه، فقالوا بإتلاف ا روف وتنافرها، وقالوا بالتوافق والتناغم ورقة الألفاظ وفخامتها، و شك أن ذلك كله يؤدي إلى الإيقاع، باعتبارهم يتعاملون مع اللفظ؛ الذي عرفوه على أنه الصوت(16)، وهل الصوت إ مادة الإيقاع.

ولعلنا إذ نقف وقفة تأمل ودراسة للشعر العربي بشتى أغراضه وبكل موضوعية، تملك إ أن نقول: أن العرب القدامى "لشدة ولعهم بالإيقاع وإدراكهم لقيمته الجمالية والتعبيرية، لم يكتفوا باستعماله في ياغة الشعر، بل زينوا به كثيرا من أ ناف كلامهم المنثور"(17)، وتقف خطبهم التي و لتنا شاهد على ذلك. ويشهد لذلك أيضا أن نظم العرب وكلامها يكاد يخرج في الطرق التي يألفون بها عن إحدى أساليب يتصدر الإيقاع فيها المكانة البارزة، حيث التوازي والتساوي والتوازن والأسجاع.

ومنه فالإيقاع في الأدب يمثل تلك المراعاة للخصائص الصوتية، والإفادة منها لإبلا غ

الرسالة الأدبية، وطرح المعاني في طريق السامعين أو القارئين. وهو لذلك يبدوا في السجع والجناس والتكرار ولزوم ما يلزم وغيرها من أساليب اللغة المؤدية لبلاغة الكلام.

– من البلاغة الى التأثير النفسي:

وإذا كان ا لحد الصحيح للبلاغة في الكلام انطلاقا من معناها اللغوي "أن يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع، بإ صابة موضع الإقناع من العقل والوجدان من النفس"[18]، فإن أي كلام يبلغ الغاية في ذلك والتمام، ويعجز كل من توافرت له أسباب الإتيان بمثله، يسمى معجزا ومؤثرا، وهل وظيفة البلاغة إ لا أن تمنح التعبير جما لا وتهبه تنوعا في الأسلوب، وتعطيه الإيقاع الذي يجذب النفس ويفهم العقل.

لقد ارتقى القرآن بالبلاغة وجعل منها وجها من وجوه الإعجاز؛ شغل فكر المسلمين منذ نزول القرآن، فغدت بذلك علما قائما بذاته، مستقلا في بنائه، لا ينفك الأدب عنه؛ لأنه رافد من روافده، ووسيلة من وسائله، والأدب في رمته يقصد إلى التأثير في المتلقي وجذب السامع، والقرآن كنص أدبي رفيع المقام رباني المصدر راقي الغاية، له من الأثر والأسر ما يشهد به كل من مست آياته آذانه، أو تمتمت بها شفاهه، فتراه يصنع بالقلوب والنفوس الشيء العجاب.

ومتى اجتمعت لنص أدبي أيا كان تلك المقومات والد لائل والعلامات أمكننا ا لحديث عن فنيته، كيف والإجماع منعقد على فنية النص القرآني، بل إعجازه في هذا الجانب، لأن "المعيار ا لحقيقي الذي به يمكن التعرف على وجود الفن وقيمته يرجع إلى التأثير الوجداني، فعندما يبعث فينا العمل الفني شعور الغبطة أو ا لانبهار أو النشوة أو غيرها من مشاعر الجمال أو الإعجاب التي تؤثر في الوجدان، يمكننا عندئذ أن نجزم بوجود الإنتاج الفني الأ صيل"[19]، والقرآن بلغ الغاية والصدارة في الص فة الفنية، حتى أن الإحساس الفني به يتولد في كل نفس تتعامل معه مباشرة أو بواسطة.

إنَّنَا لو تلمسنا ذلك الأثر بعد نزول القرآن وجدناه ماثلا في السلوك العملي للرعيل الأول الذين اخذوا بالقرآن مبهورين، فشغلهم تطبيق أوامره عن الإلتفات إلى التأليف فيه، أو وضع القواعد والأ صول، وإنما كانت تصرفاتهم وأعمالهم ترجمة حقيقية للأثر الذي لحقهم من القرآن، وكتب السير تعج بالأخبار الدالة على ذلك، فكان الإعجاز التأثيري النفسي في

هذه المرحلة ممارسة عملية في حياة المسلمين.

وبعد مضيّ فترة ا نبهار في الإسلام والإعجاب بالقرآن أخذت الأقلام تكتب في إعجاز القرآن، ودافع هذه الكتابة –كما سبق المقال– الأثر النفسي الذي خلفه القرآن في نفوس هؤ ء، فانبرت الأقلام للكتابة في المكي والمدني والمحكم والمتشابه وأسلوب القرآن وقصصه وغيرها من المباحث، فكانت لفتات متناثرة هنا وهناك تشي بالأثر النفسي التأثيري للقرآن الكريم.

والغائص في الموروث النقدي المتعلق بالقرآن وما أقيم حوله من دراسات، يجد نفسه أمام كم هائل منها، الدافع الرئيس من ورائها؛ هو الأثر الذي تلحقه بالدارس لذلك فـ"عملية التأثير التي تتأسس بين القرآن وبين المتلقي كانت المحرك الفعلي لمثل هذه الدراسات التي تكلمت في مفاهيم كثيرة وردت في الخطاب التراثي البلاغي مثل: ا ستجابة التشوف وا نشراح وا ستبشار... وغيرها من الألفاظ الدالة على التحرك النفسي وا هتزاز الذاتي أمام البيان القرآني"[20].

ولعلّ هذا هو السبب الذي جعل كثيرا من العلماء يشيرون إلى اعتبار إعجاز القرآن الكريم يكمن في هذا الوجه، وقد كان نبه إلى هذا اللون من ألوان الإعجاز الذي يشتمل عليه القرآن الإمام الخطابي في منتصف القرن الرابع، يقول في ذلك: "في القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إ الشاذ من آحادهم وذلك هو نيعه بالقلوب وتأثيره بالنفوس"[21]، فهو يعده وجها مستقلا إضافة إلى أوجه الإعجاز التي تعارف عليها الإعجازيون.

ويقول مسترسلا: " فانك تسمع غير القرآن منظوما و منثورا إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة وا لاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والفلق وتغشاها الخوف والفرق وتقشعر من الجلود وترتعد له القلوب يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة"[22].

والخطابي في كل ما سبق يأ ل لمذهبه في القول بأدلة قرآنية ومواقف من السنة فأورد قصة الملأ من قريش حين أرسلوا عتبة بن ربيعة للتفاوض مع الرسول فرجع إليهم يغير الوجه

الذي ذهب به بعد أن اسمعه الرسول شيئا من القرآن وقصة إسلام عمر ابن الخطاب بعد سماعه سورة طه، وقصة النفر من الجن الذين سمعوا القرآن فقالوا " إِنَّا سَمِعنَا قُرْءاناً عَجَباً يَهدِي إِلى الرُّشدِ فَأَمَنَّا بِه"[23] ، وأَجمل الشواهد بالقول: " وكم من عدو للرسول– لى الله عليه وسلم– من رجال العرب وفتّاكها اقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في أسماعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه"[24]. وفي كل ما تقدم يعطينا الخطابي تعريفا واضحا، بل جملة من الأو اف ومظاهرا لهذا التأثير.

أمّا من عقبوا الخطابي –كالجرجاني– فالتأثر بنظرته للإعجاز التأثيري النفسي للقرآن يبدوا واضحاً من خلال تدليلهم على الإعجاز القرآني ووقوف العرب منبهرة إزاءه، فعبد القاهر الجرجاني يستدل على عجز العرب أمام القرآن بحديث الوليد بن المغيرة وقوله عن القرآن، وقول عتبة بن ربيعة، وقول أبي ذر وأخوه أنيس عن القرآن كلاما يشبه ما قاله سابقيهما، وهي الشواهد التي اعتمدها كل من تحدث عن هذا النوع من الإعجاز، حتى أنه في تحليله للشواهد القرآنية[25] ، يقول با سن والروعة والمأخذ من القلب ولطف الموقع والأريحية، وكلها لها اتصال بالنفس.

كما نجد ابن القيم يقول عن تلقي القرآن " يقع في النفوس عند تلاوته وسماعه من الروعة ما يملا القلب هيبة والنفوس خشية وتستلذه الأسماع وتميل إليه با نين الطباع سواء أكانت فاهمة لمعانية أو غير فاهمة عالمة بما يحتويه أو غير عالمة كافرة بما جاء به أو مؤمنة"[26]. وهو إيحاء إلى تأثير القرآن في النفوس.

ومن الدارسين المحدثين من يرى أن القدر الأكبر من الإعجاز القرآني يتأتى من هذا النوع فيقول: "وعندي أن قدرا كبيرا من إعجاز القران يرجع إلى هذا النوع فما أظن امرء سليم الفكر والضمير يتلو القرآن أو يستمع إليه ثم يزعم انه لم يتأثر به، لأنه ما من هاجس يعرض النفس الإنسانية من ناحية ا قائق الدينية، إ ويعرض له القران بالهداية وسداد التوجيه"[27].

ويعرفه مُحَّد عطا احمد يوسف في محاولة لمقاربة حد الإعجاز التأثيري النفسي للقرآن، يقول: هو وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم. أشار إليه السابقون، ويتمثل فيما يتركه القرآن الكريم من أثر ظاهر أو باطن على سامعه أو قارئه، و يستطيع هذا السامع أو القارئ

مقاومته ودفعه، و يقتصر ذلك على المؤمنين به"[28].

– مظاهر التأثير النفسي للقرآن:

إننا عندما نقرا اليوم في كتب السيرة موقف الوليد بن المغيرة عند سماعه تلك الآيات الباهرات من الرسول وحيرته في و فها وما تملكه من الدهشة والعجب يمكن تفسيره إ بالأثر النفسي الذي ق الوليد، ويلحق كل من مست آيات القرآن مسامعه، لأننا نحسب أن الوليد ما سمع مثل تلك القيم التي سمعها من الرسول، أو ما سمع من جميل القول ومتجانسة نظما قبله في الجاهلية، ولكن الشيء الذي اثر فيه وملك عليه نفسه وقلبه هو ذلك الشيء الذي لم يستطع معه إ أن يقول "والله إن لكلامه لاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وأنه يعلوا و يعلى عليه ".

وفي محاولة العلماء تأ يل الإعجاز التأثيري وإيجاد تعريف له لم تصل بهم محاو تهم إلى حيث أرادوا، لكن مع ذلك قدموا لنا كما هائلا من مظاهر هذا التأثير نستقيها من الشواهد القرآنية وأحداث السيرة التي دللوا بها، فالقرآن " من فجر المبعث، فرض إعجازه على كل من سمعوه من العرب على تفاوت مراتبهم في البلاغة، وقد تحير المشركون في و فه، وحر وا على أن يصدوا العرب عن سماعه، عن يقين بأنه ما من عربي يخطئه أن يميز بين هذا القرآن وقول البشر"[29].

وإن تطلبنا مظاهر لهذا التأثير فإن آية واحدة من كتاب الله تجلي وتكشف لنا مرادنا، وهي قوله تعالى: " اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ا ْدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ "[30]، غير أننا سنستأنس بما ورد في السيرة وغيرها من الموارد لنزيد إيضاحا واستد .

في القرآن الكريم يخبرنا الله تعالى في سورة الجن عن النفر من الجن الذين سمعوا القرآن فتأثروا فترجموا ذلك الأثر إيمانا في ذواتهم ودعوة لإخوانهم، ويخبرنا أيضا في سورة المائدة عن وفد النصارى الذين فاضت أعينهم من الدمع بعد سماعهم ا ق الذي عرفوه في كتبهم، وفي مقابل الذين أحياهم الله بأثر القرآن الطيب في نفوسهم؛ يحكي لنا جملة من تلك الآثار على أولئك الذين غلفوا قلوبهم بمواريث الجاهلية البالية؛ كا شمئزاز وا قد وا نق والكيد للرسول

ومن اسلم معه.

أما في السيرة ففي ترجمة الصحابي جبير بن مطعم بن عدي القرشي ﷺ أنه أتى رسول الله ﷺ في بعض أسرى بدر، وهو وقتئذ مشرك، فدخل على الرسول وهو يقرا في المغرب بسورة الطور، فلما انتهى ﷺ إلى آيات منها كاد جبير يطير، ومال إلى الإسلام.

والسيرة تطالعنا بقصة إسلام عمر بن الخطاب، إذ خرج ذات مساء متوشحا سيفه يريد الرسول، فثناه سائل عن بغيته حين أعلمه أن من أهل بيته من با، فقصد بيت هره وقد رابه ما سمع، فسمع من البيت وت تلاوة خافت... فأسلم بعد سماعه شيئا من سورة طه.

ويمكن إجمال مظاهر التأثير النفسي للقرآن على المؤمنين فيما يلي:

وجل واطمئنان في القلوب بدليل قوله تعالى: "إِنَّمَا المُؤمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّه وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون"(31)، وقوله تعالى: "الَّذِينَ ءَامَنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله اَ َ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب"(32). وهذه المظاهر إن كانت باطنية إ أنها تظهر سلوكا، كالخشوع والسجود وقشعريرة الجلد وفيض الدمع من العيون.

أما الكافرون ممن أنكروا القرآن وجحدوا آياته مع استيقان أنفسهم أنها من عند الله؛ فمظاهر التأثير يترجمها الضجر والتأفف وا شمئزاز. لقوله تعالى: "وإِذَا ذُكِرَ الله وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَذِينَ َ يُؤمِنُونَ بِالآخِرَة"(33)، وقوله تعالى: "وإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَذِينَ َ يَرْجُوَن لِقَاءَنَا اِئتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أو بَدِّلْه"(34).

ومع حرص القرآن على أن يسجل لنا تلك المواقف التي تنبئ بالأثر الفعلي للقرآن في كل النفوس، نقرأ – إضافة إلى ذلك– في السيرة جملة من أخبار الذين تأثروا بالقرآن فاسلموا، وممن قالوا في القرآن مقا ت ظل التاريخ يحدث بها مع أنهم لم يسلموا.

ويظل أكبر مظهر على قوة القرآن وسطوته على النفوس وأثره فيها، تلك النقلة العجيبة التي حولت رعاة الأغنام إلى قادة الأمم، من الجاهلية التي تداس فيها ا قوق وتسفك فيها الدماء إلى الإسلام، في ظرف وجيز يقاس في عمر الزمن، مقارنة بأعمار تطور الأمم السابقة واللاحقة. إضافة إلى ما أكسبه للغة العربية من تطور وثبات في نفس الوقت، وحصانة تظل بها خالدة خلوده.

– الإيقاع والإعجاز النفسي التأثيري للقرآن:

إن السَّمع هو الأداة الأولى والمباشرة لنقل الكلام، وهو الوسيلة الأنسب لفتح القلوب، وهذا سر يقف وراء الترداد الكثير للفظ السمع في القرآن، وتقديمه أحيانا على باقي ا واس الأخرى، "والأذن هي ا اسة الوحيدة التي تستقبل النص ثم تنقله بعد ذلك إلى مراكز الإحساس ومناطق التأثير وأماكن الذوق... و سبيل إلى الأذن إ الصوت..و على هذا بد أن تتوفر في النص القديم عدة عنا ر ذات تأثير على الأذن، تكمن في الصوت من مؤثرات إيقاعية وتلوين في الأداء وثراء نغمي وجمال في العرض"[35]؛ فيكون بذلك حدوث التأثر النفسي حق دوث اللذة السمعية.

ولعلم الله عز وجل أن "السمع نافذة على النفس، وحافز على ا نفعال والتفاعل مع متطلبات دينية حيوية وأخروية"[36] حض على جمال الأداء في قوله تعالى: "ورَتِّلِ الْقُرآنَ تَرتِيلا"[37]، بمراعاة دقائق النسق القرآني من إعطاء ا روف حقها في النطق والمخرج واحترام حركات الألفاظ ومواضع الوقف وغيرها من القوانين السمعية الأدائية التي يعنى بها علم تجويد القرآن.

وعندما نتحدث عن الإعجاز النفسي للقرآن الكريم فإننا استلزاما نتحدث عن إعجاز نفسي للغة التي جاء بها القرآن، وقد علمنا أن اللغة العربية التي نزل بها القرآن لغة موسيقية واستعملتها العرب استعما موسيقيا؛ يبدو ذلك جليا فيها حتى وإن لم يفهم ما وراء تلك اللغة، والقرآن بلغ من هذه الخا ية مبلغا، ودرج على استعمال العرب للغة، إذ "كانوا يحفلون كثيرا بالعنصر الموسيقي ولم يكن ذلك عندهم من قبيل الترف ولإهدار الطاقات، وإنما عدوه وسيلة فعالة من وسائل ا تصال والتبليغ؛ إذ به يؤثر في المتلقي فينفعل وتتحرك مكنوناته فينصاع لذلك العمل الفني وينجذب إليه"[38] فكان لذلك؛ القرآن موسيقيا موقعا في آياته وجمله وسوره.

إن المتلقي للقرآن يجد له جاذبية ويحسُّ له أثراً، يقول سيد قطب: "إن في القرآن سرا خا ا، يشعر به كل من يواجه نصو ه ابتداءً قبل أن يبحث في مواضع الإعجاز فيها، إنه يشعر أن هنالك عنصراً ما ينسكب في ا س بمجرد ا ستماع لهذا القرآن، يصعب تحديد مصدره:

أهو العبارة ذاتها.

أهو المعنى الكامن فيها.

أهو الصور والظلال التي تشعها.

أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ...

ذلك سر مودع في كل نص قرآني، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء"[39].

وسيد قطب في مقولته هذه يثبت الإعجاز النفسي التأثيري للقران، لكنه يحار في منبعه، غير أنه سلط الضوء على جوانب فنية في النص يعتقدها مكمن السر وراء ذلك. ونجده في موضع آخر ينكشف له السر أو بعضه، فيقول عن العرب الأُولى الذين تلقوا القرآن: "لقد راع خيالهم بما فيه من تصوير بارع، وسحر وجدانهم بما فيه من منطق ساحر، وأخذ أسماعهم بما فيه من إيقاع جميل"[40] ، ومنه ندرك أهمية الإيقاع في الجانب التأثيري للقرآن فهو إلى جانب عنا ر أخري في النص يحدث نصيبه من التأثير، فكما أنه يمكن قصر الإعجاز القرآني على لون واحدة من ألوان الإعجاز؛ يمكن أيضا قصر هذا النوع من الإعجاز على الإيقاع وحده.

وتؤكد الكثير من الدراسات التي عنيت بالجانب الإيقاعي للقرآن العلاقة بين التأثير والإيقاع "فانك إذا قرأت القرآن قراءة سليمة وتلوته تلاوة حيحة أدركت انه يمتاز بأسلوب إيقاعي ينبعث منه نغم جميل ساحر يبهر الألباب ويسرق الأسماع ويسيل الدموع من العيون ويستولي على الأحاسيس والمشاعر"[41]. ويقول أبو زهرة في ذلك: "لو حاولنا أن نعرف سر ذلك النغم وتلك الموسيقى وذلك التآخي لعجزنا أن نعرفه على وجه التحقيق، إنما نعرف تأثيره في نفوسنا إذا تهدت وو لت إلى ذوق الأسلوب، وذلك أمر يدرك لذوي الألباب و يعرف سره"[42].

والناظر إلى ما كتب عن الإيقاع يجد له استقلا عن الأثر النفسي الذي يلحقه بالسامع، ويبدو شيئا طبيعيا؛ إذ الموسيقى هي لغة العواطف، يقول إخوان الصفا عن تأثير الموسيقى: "إن كل ناعة تعمل باليدين فإن الهيولى الموضوعة فيها إن هي أجسام طبيعية ومصنوعاتها كلها أشكال جسمانية إ الصناعة الموسيقية، فان الهيولى الموضوعة فيها كلها جواهر روحانية وهي نفوس المستمعين، وتأثيراتها فيها كلها

روحانية أيضا... فمن تلك النغمات ما يحرك النفوس نحو الأعمال الشاقة... ومن الأ ان والنغمات ما يسكن ثورة الغضب ويحل الأحقاد ويوقع الصلح ويكسب الألفة والمحبة"(43)، وقد رأينا ذلك في فعل الرسول مع مبغضيه من قريش حين يأتونه وا قد يملا قلوبهم والبغض يقطر من وجوههم وما إن تلامس أذانهم كلمات الله يتلوها الرسول عليهم حتى يسلموا وينقلب البغض حباً وأي حب.

يقول ابن الجزري: " لقد أدركنا من شيوخنا من لم يكن له حسن وت و معرفة بالأ ان، إ أنه كان جيد الأداء قيما باللفظ، فكان إذا قرأ اطرب المسامع، وأخذ من القلوب بالمجامع، وكان الخلق يزدحمون عليه، ويجتمعون على ا ستماع إليه أمم من الخواص والعوام، يشترك في ذلك من يعرف العربي ومن يعرفه من سائر الأنام، مع تركهم جماعات من ذوي الأ وات ا سان عارفين بالمقامات والأ ان، لخروجهم عن التجويد والإتقان"(44).

إن نظرة فاحصة لكلام ابن الجزري توقفنا على كل ما أورده الرسول الكريم – ﷺ– من أحاديث في شان إ لاح الصوت بالقرآن، ويجعلنا ندرك قبل ذلك لة الإيقاع بالأثر الذي يلحقه في نفوس السامعين، إذ ليس القصد في الإيقاع القرآني العلم بالمقامات وضروب الأ ان؛ كما هو المتبادر، وإنما القصد ذلك ا نفعال الذي يتلبس القارئ، فيجيء وته موقعا من أثر انفعاله فينقل ذلك إلى المستمعين، وإ كيف يستقيم قول الرسول لى الله عليه وسلم "ليس منا من لم يتغنى بالقرآن". والرسول إنما قال مقولته بعد أن ولعت العرب بالغناء والنشيد، وأشبعت به نهم نفوسها.

لقد كان لموسيقى القرآن ونظمه روعة عند كل سامع، حتى من يفهم العربية، فإن لكلماته ونظمه ومده وغنه ونهاية فوا له ووقفه ما يسترعي من يفهم العربية، وما ذاك إ لكون الموسيقى لغة العواطف. يقول الغزالي عن سبب ركون النفس وتأثرها بالنغم ا سن، "ووجه استلذاذ الروح النغمات؛ أن العالم الروحاني مجمع ا سن والجمال، ووجود التناسب في الأكوان مستحسن قو وفعلا... فمتى سمع الروح النغمات اللذيذة والأ ان المتناسبة تأثر به لوجود الجنسية... ووجه آخر: إنما يستلذ الروح النغمات؛ لأن بها نطق النفس مع الروح بالإيماء الخفي"(45).

والرسالة الأدبية والدينية للقرآن الكريم شك يتحقق مفعولها بفعل الإيقاع المحرك لنوازع ودقائق النفس، والغزالي كان على وعى كبير بأهمية إيقاع ما يلقى في إثارة انفعا ت

المتلقي، لعلمه أنه " بقدر تناغم مضمون الرسالة الشعرية مع روح المتلقي؛ بقدر ما يكون التأثير النفسي محكما وقويا لديه"[46].

وخلا ـة القول: أن الإيقاع له من مبلغ التأثير على النفس وسياستها ما جعل القرآن موظفاً لهفي شتى موضوعاته، حتى في أثناء الأحاديث التي تتناول الجوانب العلمية؛ كا ـديث عن خلق الإنسان والجبال ومظاهر الكون من رياح وأمطار وغيرها، ومن ثم يكون للإيقاع حضوره الدائم إلى جنب أنواع الإعجاز المختلفة، وفي مقدمتها الإعجاز النفسي التأثيري للقرآن.

الهوامش:

[1]– بن نبي، مالك: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، د.ط، 1402ه/1981م، ص:.176

[2]– عيد سعد يونس: التصوير الجمالي في القرآن، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1427ه/2005م، ص239.

[3] – مراد عبد الرحمن مبروك: من الصوت إلى النص (نحو نسق منهجي لدراسة النص الشعري)، دار الوفاء، الإسكندرية، ط1، 2002م، ص68.

[4] – محمود المسعدي: الإيقاع في السجع العربي.محاولة تحليل وتجديد، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1996م، ص 05.

[5] – ابن منظور: لسان العرب، ج6، دار ـادر، بيروت، ط1، 1997م، مادة: وقع.

[6] – المرجع نفسه، مادة: وقع.

[7] – وهبة مجدي ، المهندس كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م، ص 71.

[8] – عبد الملك مرتاض: نظرية القراءة ـ تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية، دار الغرب. الجزائر ، 2003، ص: 226.

[9] – عمر السلامي: الإعجاز الفني في القرآن، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، دط، 1980م، ص215.

[10] – المرجع نفسه. ص217.

[11] – إميل يعقوب، بسام بركة، مي شيخاني: قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم للملايين، لبنان، ط1، 1987م، ص 89.

[12] – عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، دط، 1412ه/1992م، ص 187.

[13]– وهبة مجدي، المهندس كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص75.

[14] – المرجع نفسه، ص 89.

[15] – وهبة مجدي، المهندس كامل: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص 125.

[16] – ينظر: مُحَمَّد التونجي، راجي ا بر: المعجم المفصل في علوم اللغة– الألسنيات، ج1، مراجعة: د. إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1414هـ/1993م، ص 526.

[17] – احمد أبو زيد: التناسب البياني في القرآن ، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 1992م، ص 216.

[18] – أنور الجندي: الفصحى لغة القرآن، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1402هـ/1982م، ص37.

[19] – عبد العزيز عتيق،: في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1972م، ص 14.

[20]– عبد القادر عبو: نظرية جمالية التلقي، جريدة الأسبوع الأدبي،تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق،العدد: 981، تاريخ: 2005/11/12م،موقع.www.Awu-dam.org .

[21] – الخطابي: بيان إعجاز القرآن، تحقيق: مُحَمَّد خلف الله، مُحَمَّد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط2، 1968م، ص 70.

[22] – المرجع نفسه، ص 70.

[23] – سورة الجن، الآية 01–02.

[24] – المرجع السابق، ص 70.

[25] – يقول في تحليله للآية التالية:" ولتجدنهم احرص الناس على حيواة" : "إذا أنت راجعت نفسك، وأذكيت حسك وجدت لهذا التنكير، وأن قيل (على حياة) ولم يقل على ا ياة حسنا وروعة ولطف موقع...وتجدك تعدم ذلك مع التعريف، وتخرج عن الأريحية والأنس إلى خلافهما". الجرجاني: د ئل الإعجاز، ص 194.

[26] – ابن القيم: الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن، مكتبة الهلال، دتا، ص7.

[27] – مُحَمَّد الغزالي: نظرات في القرآن، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، 1986م، ص 123.

[28] – مُحَمَّد عطا احمد يوسف:الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، ع 4، ديسمبر 1985م، ص22.

[29] – عائشة عبد الرحمن: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، مصر، ط3، دتا، ص39.

[30] – سورة الزمر، الآية 23.

[31] – سورة الأنفال، الآية 02.

[32] – سورة الرعد، الآية 28.

[33] – سورة الزمر، الآية 45.

[34] – سورة يونس، الآية 15.

[35] – عباس بيومي عجلان: الأداء الفني للنص، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1994م، ص85.

[36] – احمد ياسوف: جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، دار المكتبي، دمشق – سورية، ط1، 1415هـ /1994م، ص 78.

[37] – سورة المزمل، الآية 04.

[38] – بلعرج بلقاسم: من سمات الأداء في ثقافة العرب الأولين(الإيقاع)، مجلة التراث العربي، ص 69.

[39] – سيد قطب: في ظلال القرآن: مج6، ص3399.

[40] – سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، مصر، ط18، 1427هـ/2006م، ص 102.

[41] – محمود السيد شيخون: الإعجاز في نظم القرآن، مكتبة الكليات ا زهرية، مصر،ط1، 1398هـ/1978م، ص 112.

[42] – مُحَمَّد أبو زهرة: المعجزة الكبرى، ص 265.

[43] – إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، دار بيروت، لبنان، دط، 1376هـ/1957م، ص183.

[44] – ابن الجزري، أبو الخير مُحَمَّد ابن مُحَمَّد الدمشقي: النشر في القراءات العشر، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط1، 1998م، ص168–169.

[45] – أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج5، ص 154.

[46] - مُحَمَّد حرير: جمالية التلقي في القرآن من خلال بحوث الإعجاز، بحث دكتوراه، إشراف: د. حبيب مونسي، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2005/2006م، ص 69.